العجائبية في حكاية الكرامة الصوفية وإشكالية تأويلها
« بستان العارفين » للإمام النووي أنموذجا

The miraculous in the tale dignity Sufism and its interpretation problem
bustan al aarifina of el imam annawawi as a model

دراجي سعيدي
المدرسة العليا للأساتذة –بوزريعة–
(الجزائر
saididerradji@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/01/22 القبول:2022/04/03
تاريخ النشر :2022/05/13

ملخص:
يمكن أن تعد هذه المداخلة عودة إلى التفكير في موضوع الكرامة الصوفية، من وجهة نظر معينة أوفي بعض جوانبهبدءا من التصور الأصلي للكرامة وما أنجز منصوص جمالية حولها، فالتركيبة التي يتشكل منها العنوان، تمنح صورة أولية عن تصورنا للموضوع وتبرز الإشكاليةوكيفية معالجتها، والكشف عن علاقة الكرامة بالمعجزة ،باعتبارها المعادل الموضوعي لها ،كما نسعى إلى فهمالعجائبية انطلاقا من عناصر تحفلبها حكاية الكرامة الصوفية وفقمقاربة تأويلية، مع مراعاة خصوصيتها داخل المنظومة الثقافية العربية ، والوقوف على ما بين نص الكرامة والنص العجائبي من ائتلاف ، ولو بالعمل على توسيع النسق الذي يتقاطع مع النص العجائبي والخرافي والأسطوري .
الكلمات المفتاحية:عجائبية . حكاية .كرامة . صوفية . تأويل .

Abstract

This interference is a come back to the thinking about the issue of sufismdignity from one particular side, and the beginning from the original conception of dignity and the aesthetic texts which have been completed about it. The construction, which makes up the title, gives an initial image of our perception of the subject, and arises the problem and how to solve it in order to reveal the relationship between the dignity and the miracle as its objective equivalent. We also seek to understand the miracle based on elements concerned the Sufi dignity through an interpretative approach, taking into account its privacy within the Arab cultural system, and also the similarity between the dignity text and the miracle ones, even if by by working to expand the structure that intersects with the miracle, fabulous and mythical text.

KeyWords: miraculous,tale, dignity, Sufism, interpretation.

*المؤلف المرسل

مقدمة:

تعمل هذه المقاربة على كشف بعض العناصر العجائبية ؛التي تحفل بها حكاية الكرامة الصوفية بغية فهمها ، وذلك بالعودة إلى التفكير في نص الكرامة من وجهة نظر معينة ، باعتباره نصا إبداعيا له خصوصيته وله مكوناته الخيالية والحكائية والأسلوبية ، وله قيمته المعرفية والروحية ، وله وظائفه الجمالية أيضا ، وضمن هذه المعطيات يمكن معالجة العجائبية في الحكاية الصوفية (جراب القمح) ، من خلال أحد المتون –بستان العارفين للإمام النووي في القرن السابع الهجري – التي اهتمت بهذا النوع من حكايات الكرامة الصوفية، والاطلاع على مواقف المقرين بالكرامة والمنكرين لها بالنظر للنظام الكوني ، والعمل على إزالة التداخل الحاصلبين الكرامة وبين المعجزة ، بإيجاد النسق الجامع بين المفاهيم المتجاورة : العجائبي والكرامي والأسطوري والخرافي والسحري والمنقبي ، من حيث كونها جميعا رؤية إبداعية ، ذات آفاق حضارية وثقافية .

وحري بنا أن نطرح الأسئلة التالية : لماذا احتلت الكرامة الصوفية هذا الموقع الهام والمتزايد في وعينا ؟ وهل وجدت الحكاية الكرامية في النص القرآني والحديث النبوي أرضية تقف عليها في تشكيل المخيلة العربية ؟وإذا سلمنا جدلا بحقيقة الكرامة الصوفية ،فكيف نكشف عن العناصر العجائبية في النص الكرامي ؟ و ما هي إشكالية التأويل وآلياتهلفهم العجائبية في حكاية الكرامة الصوفية ؟ هذه الأسئلة وغيرها يمكن أن تشكل المنطلق في إثارة جوانب أخرى في عجائبية الحكاية الكراماتية ، ويتم ذلك باقتراح فرضيتين : إن الحكاية الكرامية هي نص تم تدوينه بعد تحققه حدثيا ، ثم إن متلقي الحكاية يمر بلحظتين هما : التقبل الذوقي ولحظة التأويل .

1 . تركيبة العنوان : الموضوع – التصور – الإشكالية .

تحديد العنوان (العجائبية في الحكاية الصوفية وآليات تأويلها) بهذه التركيبة ، له ما يبرره في علاقته بالموضوع وتصوره وبالإشكالية ، فالعنوان يبدو لأول وهلة إشكاليا من وجوه عدة ، فهو يسلط الضوء على مضمون البحث ، باعتباره عتبة أولى ، يقع عليها بصر القارئ ، وباعتباره مكثفا لمحتوى الموضوع ، وقد يدفع إلى قراءة النص أو يؤدي إلى العزوف عنه ، ويعمل على خلق حوار نقدي مع القارئ ، وخاصة العنوان المراوغ ، فالحديث عن العجائبية لا يعني الحديث عن العجيب والغريب ، فالتفريق المنهجي ضروري كي تكون المقاربة واضحة ، ويبقى إشكال ترجمة المصطلح مطروحا .

للكرامة الصوفية مفاهيم عديدة تتقارب وتتباعد حينا بل تتداخل وتتشابه حينا آخر ، ولكنها في الأخير تلتقي في ذلك الحدث الخارق للعادة؛الذي هو هبة إلهية خاصةبصفوة من خلقه ، مكافأة له على مجاهداته في المعراج الروحي.وتشدها علاقة وثيقة بالمعجزة ، رغم ما بينهما من فروق ، وترتكز الكرامة الصوفية على فعل أساس ، قائم على العجائبية وكسر منطق العلاقة بين السبب والنتيجة، فتبدو الأحداث في حكاية الكرامة الصوفية غير قابلة للتفسير ومستعصية على الفهم، وقوانين الحياة الطبيعية التي يعيشها الإنسان،لأن «الكرامة الصوفية تقوم على الحيرة والدهشة، بل والاستنكار إذا تم النظر إليها من زاوية العقل، فإذا كان الطبيعي واللاطبيعي ينهضان على الصراع في

الأدب العجائبي، فإنهما معا في حكايات الكرامة الصوفية تتضافران ، إضافة إلى كونهما متصارعان، لأن أحدهما لا يمكن أن يستغني عن الآخر ».(شغموم 1991 ص14 20)

ولا شك أن تردد القارئ حيال حكاية الكرامة الصوفية هو الشرط الأساس لتحقق العجائبي ، فحين يحتار الإنسان نتيجة قصوره عن معرفة أمر الحدث وكيفية تأثيره فيه ، وعجزه في الحسم بين أن تكون حقيقية أو خيالية ، حينئذ تتحقق صفة العجائبية ، وهو ما يستلزم حتما وقوف المتلقي موقفا وسطا بين عالم الحقيقة وعالم الخيال ، وهذا هو التجاور المطلوب في الحكايات العجائبية ، تجاور ينبغي ألا يمنح للمتلقي فرصة لمغادرة أحد العالمين ، فالعجائبي بحسب هذا المفهوم لا يدوم إلا لحظة التردد المشترك بين الواقعة والقارئ .

إن كرامة الولي الصوفية في جوهرها هي إعادة إنتاج لسيرة النبي بكيفية من الكيفيات بلولمعجزةأيضا ،قد يجعل منها الوجه الآخر للنبوة ، تحقق بشكل ما الاستمرارية والامتداد التاريخي لمفهوم خرق العادة ، فلم تعد المعجزة– من وجهة النظر الصوفية – ظرفية مؤقتة مقصورة على الرسل ، لأنها « صارت تاريخية ذهنية عندما لبست ثوب الكرامة ، وشكلت جزءا أساسيا من الذات الفردية والجماعية . ويتبين من هذا أن سيرة الصوفي إنما هي استنساخ ومحاكاة لسيرة النبي ، بل ستظل نسخة باهتة ومحاكاة شاحبة ، على الرغم من كل المبالغات والتهويمات التي انساق إليها كتاب المناقب والكرامات ». ((المنصوري 2017 ص 234 236)

ويجدر بنا الحديث أولا عن الكرامة الصوفية داخل منظومة الحضارة العربية الإسلامية ، فهي من أكثر المسائل التي خلقت جدلاواسعا داخل المجتمع الإسلامي في الماضي والحاضر ، بسبب التباسها بالمعجزة ، بين متقبل لها مؤمن بحقيقتها وبين منكر لها معتبرا أنها محض خيال وصناعة المدعين . وعن السر في هذا الاهتمام المتزايد بالكرامة الصوفية في هذا المجتمع ، وهل يعود ذلك إلى متنهاالحكائي العجائبي أو إلى جمالية اللغة السردية التي نقلت الأحداث الكرامية إلى الجمهور المتلقي؟ حيث يكوّن السارد من خلالهانصوصا ، بلغت فيها العجائبية والجمالية حدا كبيرا .«والأمر اليقيني أن الإسلام أسهم بقدر كبير في تشكيل ملامح المخيال العربي ، من خلال قصص الأنبياء وصور الآخرة والجنة وجهنم والملائكة والشياطين ، وبقدر ما فتحت هذه الجوانب كوى للخبر استطاع من خلالها أن ينعتق من الواقع المنظور ، فإنها كبلته فظل أسيرا في مدارها لا يملك منه خلاصا ».(القاضي 1998 ص 622)

2 . الكرامة والنظام الكوني :

يمكنأن تتخذ الكرامة الصوفية علامة دالة على التدخل الإلهي في هذاالعالم ، وتسعى إلى تحقيق هدفين هما : إذعان الجاحد وتقويةإيمان المؤمن ، ولا يختلف الأمر كثيرا عن دور المعجزة ، ويتساءل البعض : ألا يجوز النظر إلىالكرامة الصوفية بوصفها (عائقا أنطولوجيا) أو إخلالا بالنظام ، يقف أمام سيرورة الظواهر الطبيعية وانتظامها وتناغمها ؟ويرون أن « العامة يظنون أن قدرة الله وعنايته تظهران بأوضح صورة ممكنة إذا حدث في الطبيعة – على ما يبدو – شيء خارق للعادة مناقض لما اعتاده العامة أن يتصوروه ، وخاصة إذا كان هذا الحادث بالنسبة لهم فرصة كسب و مغنم ، وهم يعتقدون أن أوضح برهان على وجود الله هو الخروج الظاهر على نظام الطبيعة . لذا

يبدو في نظرهم من يفسر الأشياء أو المعجزات بالعلل الطبيعية – أو من يبذل جهده من أجل معرفتها بوضوح – يبدو كأنه ألغى الله ، أو على الأقل قد أسقط العناية الإلهية ».(اسبينوزا 2020 ص 229 230)

وقد اتخذ ابن رشد الموقف نفسه من المعجزة والكرامة ،فيرى أن الجواز بخرق العادة هو أقرب أن يدل على نفي الخالق من أن يدل على وجوده، بل ينفي الحكمة عنه والنظام الكوني إن كان موجودا« ومن أنكر وجود المسبَّبات مرتبة على الأسباب في الأمور الصناعيةأو لم يدركها فهمه، فليس عنده علم بالصناعة ولا بالصانع، وكذلك من جحد وجود ترتيب المسبَّبات عن الأسباب في هذا العالم، فقد جحد الصانع الحكيم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا » .(رشد 1998 ص 166 167)

وطائفة أخرى لا تجد مانعا من وقوع المعجزة و الكرامة ؛ بل تقر بإمكان حصولها، فالغزالي يدافع عن إمكان خرق العادة ، لكي يفسح المجال أمام التدخل الإلهي في العالم،ويرى أن النظام الناتج عن الاطراد الملاحظ في ظواهر الطبيعة، ليس دليلا كافيا على وجود الخالق– في نظره –ويعلل لذلك بقوله: « لأن الاطراد هو نوع من التكرار الذي تألفه الحواس ، ومن ثم يتحول إلى مجرد (عادة) تقوم على نوع من (الاقتران) بين ظاهرة وأخرى ، أي بين ما نراه سببا من جهة ، وما نعده نتيجة من جهة ثانية، فلنعين مثالا واحدا وهو الاحتراق في القطن مثلا مع ملاقاة النار ، فإنا نجوز وقوع الملاقاة بينهما دون احتراق ، ونجوز حدوث انقلاب القطن رمادا محترقا دون ملاقاة النار ، وهم ينكرون جوازه » .(الغزالي 1982 ص 195)

ولمعرفة الفرق بين الكرامة والمعجزةهو أن المعجزات علامة صدق للأنبياء ،أما الأولياء فلهم كرامات تتحققإستجابةلدعائهم،وقد تقع بغير اختياره في بعض الأوقات للدلالة على صحة ما هم عليه من العقائد .ولا ريب أن هذه التفرقة واهية ، لا تضع حدودا فاصلة بين المعجزة وبين الكرامة ،فإذا كان الغرض من المعجزة هو تعجيز الخلق للإيمان بالنبوة ، فقد سقط هذا البرهان ما دام في مقدور غير الأنبياء الإتيان بالخوارق، والنتيجة في المنتهى هي أن المعجزة والكرامة هما : مفهومان يكادان أن يكونا تعريفين لمفهوم واحد، وهو **خرق العادة** .

ومن دلائل القول بجواز ظهورها علىالصالحين من عباد الله، قصة صاحب سليمان عليه السلام (آصف) وقيل : إنه الخضر حيث قال: « أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » النمل/40 ولم يكن نبيا. والأثر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطب (ض) صحيح أنه قال : « يا سارية الجبل الجبل » في حال خطبته يوم الجمعة وتبليغ صوت عمر وهو على المنبر إلى سارية في ذلك الوقت وجه العدو على مسيرة شهر.وهناك كرامات وردت في النص القرآني: مريم عليها السلام ولم تكن نبيا ولا رسولا ، أصحاب الكهف ، وإبراهيم عليه السلام وزوجته « قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ، إن هذا لشيء عجيب » هود/71-73 قصة ذي القرنين ، الخضر عليه السلام ، وكذلك الكرامات التي وردت في السنة النبوية : جريج الراهب مع والدته ودعاؤها عليه ، المرأة الزانية ، الراعي الطفل ، حديث الغار والصخرة والثلاثة ودعاؤهم الله بصالح أعمالهم وانفراج الصخرة بالتدريج ، وإضاءة العصا لأسيد بن حفير وعباد بن بشر.(القشيري د ت ص 174 175)

3 . الكرامة وتجاورالأجناسالأدبية :

حكايات الكرامة الصوفية تتقاطع في كثير من الأحيان مع ما هو سحري أو أسطوري أو عجائبي ، كما يتقاطع عندها الديني والتاريخي والأدبي والجمالي « إنها نصوص مستورة بهالة قدسية لتعلقها بمبدأين خطيرين هما : مبدأ النبوة ، ومبدأ القدرة الإلهية » .(خليل 2007 ص 7 9)

فالمشي فوق الماء والطيران في الهواء وقطع المسافة في سرعة البرق والتواجد في مكانين مختلفين في زمان واحد ، وتحوُّل التراب إلى قمح أو دقيق وما شابه ذلك ، هي كرامات تزخر بها الحكايات الصوفية ،ولكنها أيضا ظواهر عجائبية تحفل بها الحكايات الخرافية العجائبية التي تنتمي إلى الأدب العجائبي ، ومع ذلك يصعب إدراج حكاية الكرامة الصوفية ضمن الأدب العجائبي لوجود عناصر غير عجائبية فيها .(الحق 2007 ص269)

لأن الحدث الذي يعد غير مألوف وخارق في نصوص العجائبي ، يصير ممكن الحدوث وجائز في نصوص الكرامات الصوفية ، وإحالة الحدث الخارق على الإلهي المقدس يدخله دائرة الممكن المتحقق شرعا ، وهذا ما يميز نصوص الكرامات الصوفية ، رغم حضور الخارق فيها ،فهي لا تنافي العلم ولا العقل ، فقد تكون محكومة بقانون نجهله ، فهي غير مستبعدة عقلا وشرعا وواقعا وهذا ما نراه وندين به بتعبير القشيري.

لعل أهم خصيصة لفهم طبيعة الكرامة الصوفية هي جمعها بين الثنائيات المتضادة ، وتحطيم مبادئ العقل الثلاثة وهي : (مبدأ الهوية ومبدأ عدم التناقض ومبدأ الثالث المرفوع) لكن خبر الغيب لا يناقض العقل ، والإيمان بالعلم لا يعني عدم الإيمان بمصادر أخرى كالحدس والإلهام ، ففيها يلتحم الوجه الواقعي للكرامة الصوفية بالخيالي والعلمي بالوهمي والمثالي بالمادي ، مع هيمنة العنصر الماورائي المثالي على الكرامة الصوفية .(زيعور 1984 ص 152)

4 . نص الانطلاق :«جراب القمح»

سنشتغل بحكاية كراماتية يمكن عنونتها بـ « جراب القمح » أو الدقيق من كتاب (بستان العارفين) للإمام النووي (631هـ – 676هـ) وقد سبقه الإمام القشيري (376هـ – 465هـ) بنحو قرنين إلى رواية هذه الحكاية بسند آخر، وبشخصية أخرى وبصيغة مختلفة في بعض التفاصيل ،نص لم يعنونه المصنِّفان ، ويندرج ضمن جنس الطبقات الصوفية ، حيث انصبت العناية على الإخبار عن كراماتهم ومناقبهم .

الحكاية في «بستان العارفين»	الحكاية في «الرسالة القشيرية»
أخبرنا شيخنا أبو البقاء الحافظ . قال : حدثنا أبو محمد ... عن عطاء عن أبيه قال : قالت امرأة أبي مسلم يعني الخَوْلاني : يا أبا مسلم ، ليس لنا دقيق . قال : عندك شيء ؟ قالت : درهم بعنا به غزْلا ! قال : أبغينيه أي أعطينيه وهاتي الجِراب ! فدخل السوق ، فوقف على رجل يبيع الطعام ، فوقف عليه سائل وقال : يا أبا مسلم تصدق علي ، فهرب منه ، وأتى حانوتا آخر ، فتبعه السائل ، فقال تصدق علي ! فلما أضجره أعطاه الدرهم . ثم عمد إلى الجراب فملأه من نحاتة النجارين مع التراب ، ثم أقبل إلى باب منزله ، فنقر الباب ، وقلبه مرعوب من أهله ، فلما فتحت الباب رمى بالجراب وذهب . فلما فتحته إذا هي بدقيق حُوَّارى ، فعجنت وخبزت . فلما ذهب من الليل الهَوِيُّ ، جاء أبو مسلم ، فنقر الباب وقلبه خائف، فلما دخل وضعت بين يديه خِوانا وأرغفة حوارى، فقال: من أين لكم هذا ؟ فقالت : يا أبا مسلم ، من الدقيق الذي جئت به ، فجعل يأكل ويبكي. **قلت : ما أنفس هذه الحكاية وأكثر فوائدها** (النووي 2006 ص 360 361)	**أخبرنا محمد بن عبد الله الصوفي ، قال : حدثنا علي بن هارون ... حدثنا محمد بن منصور الطرسوسي قال** : حكى عن عطاء الأزرق أنه دفعت إليه امرأته درهمين من ثمن غزلها ، ليشتري الدقيق لهم ، فخرج من بيته ، فلقي جارية تبكي . فقال لها : ما بالك ؟ فقالت : دفع إلي مولاي درهمين أشتري لهم شيئا ، فسقط مني ، فأخاف أن يضربني ، فدفع عطاء الدرهمين إليها ، ومر وقعد على حانوت صديق له ممن يشق الساج ، وذكر له الحال وما يخاف من سوء خلق زوجته ،فقال له صاحبه : خذ من هذه النشارة في هذا الجراب لعلكم تنتفعون بها في سجر التنور ، إذ ليس يساعدني الإمكان في شيء آخر ، فحمل النشارة وفتح باب داره ورمى بالجراب ورد الباب ودخل المسجد إلى ما بعد العتمة ، ليكون النوم أخذهم ، ولا تستطيل عليه المرأة ، فلما فتح الباب وجدهم يخبزون الخبز . فقال : من أين لكم هذا الخبز . فقالوا : من الدقيق الذي كان في الجراب ، لا تشتر غير هذا الدقيق . **فقال : أفعل إن شاء الله تعالى** » (القشيري، المصدر السابق د ت ص168)

تشتمل هذه الحكاية الكرامية على صيغا تعبيرية أساسية التي يبنى عليها الخبر أو الحكاية ، وهي وجود سارد يستثمر ضمير المتكلم لإنجاز وظيفة السرد : (حدثنا – أخبرنا) ونص مسرود يتكون من الشخصيات والأحداث وزمن وفضاء ومقصدية ، ومسرود له يتلقى النص السردي ، وهي وظيفة إبلاغية تتمثل في رسالة إلى القارئ الذي يستخلص منها المغزى الأخلاقي أو الإنساني ، وهذا ما يمثل بنية سردية ، تسهم في تحقق المحكي .

وتتميز الحكاية الكرامية في كونها تقع هامش النموذج المعرفي ، وصارت تتحقق خارج إطار الجد والمتن، وصارت مادة للتظرف والتندر، بعيدة عن النص الناتج عن الثقافة الرسمية المهيمنة ،المتوفر على الجمالية والمعرفية المتعارف عليها ، ولكنها بوجه عام تحمل قيما سامية، وتسير في اتجاه المنوال السائد الذي توجهه تراكمات تاريخية، ترتهن إلى قبولها التحول في نطاقه، وأحيانا تتحقق بناء على تناقض صريح أو مضمر مع أهم تجليات النموذج المؤسساتي .(يقطين 1997 ص58)

عمد النموذج المعرفي العربي إلى حماية نفسه وتحصينها من تسرب أو— ما كان يعتبره هامشيا – إلى دوائره ،والذي كان يعامل بازدراء ، ما دام لا يخدم المقولات العامة المهيمنة التي يتوخاها الفكر الديني ولا ترقى إلى طروحات العلم الحديثة ، وتحقق ذلك لأسباب أيديولوجية وتاريخية وحضارية ،حين كان التمييز في فترة التدوين صارما ومعاييره مضبوطة ، لكن مع التطور التاريخي وغياب سلطة مركزية سياسيا وثقافيا .. صار للهامشي موقعه الخاص والمتميز، وصار له مثقفوه الذين يذيعونه منطوقا ومكتوبا، وضمن هذا التحول ضاقت المسافة بين مفهوم النموذج والهامش ، وصار لكل منهما منتجوه ومتلقوه، ويظل التنافس قائما والإساءة ضد الآخر واردة، ولكل منهما عوالمه الخاصة به .(يقطين، المرجع السابق ص78 79)

يظهر الفرق بين الروايتين في وضع الانطلاق (سند الاستهلال) ، من حيث أن الحكاية تروى من طريقين مختلفين ووسائط متعددة ، فالنووي بصيغة المتكلم (أخبرنا شيخنا أبو البقاء الحافظ .قال: حدثنا أبو محمد .. عن عطاء عن أبيه قال : قالت امرأة أبي مسلم ..) ونجد صيغة المتكلم أيضا عند القشيري (أخبرنا محمد بن عبد الله الصوفي. قال : حدثنا علي بن هارون ..حدثنا محمد بن منصور الطرسوسي. قال :حكى عن عطاء الأزرق أنه دفعت ..) وهذا الاختلاف في الروايات قد يكون كفيلا بأن يطلعنا على بعض التحولات التي تصيب الخبر أو الحدث الواحد (درهم/درهمين ، سائل/جارية ، نحاته وتراب/النشارة) وكانت النهاية :(فجعل يأكل ويبكي/أفعل إن شاء الله تعالى) فنتوقف عند التحولات التي تصيب البنية السردية من رواية إلى أخرى والتي تؤدي بفعل ترهيناتها إلى تراكمات جديدة ، تقدم نموذجا مختلفا قد يكون مساعدا على نقل هذا النص في صورته الجديدة المرهنة من نوع آخر

قدمنا هذا المقارنة الأوليةبينالروايتين لنبرز من خلالها، مدى تحول بعض العناصر من بنية الخبر إلى بنية الحكاية حيث يعقب الراوي على الحكاية بقوله : (ما أنفس هذه الحكاية وأكثر فوائدها) ، لنتمكن في الأخير من تسطير هذه الخصوصيات التي تميز كل رواية على حدة . من وضع الانطلاق إلى سياق التحول (الحدث العجيب) إلى وضع الختام (الإدهاش والحيرة تقديسا أو تدنيسا).

1 . 4 السند إقناع بواقعية الحدث :

فكما أن النهاية وما تحمله من عناصر إثارة تخيلية للمتلقي ووعيه وإدراكه وذوقه ، وتحصيل متعة الاكتشاف وانفراج الأزمة وتحصيل الغاية ، وما تحمل من أفق متجدد للانتظار ، فإن للاستهلال (قالت امرأة أبي مسلم يعني الخولاني / حكى عن عطاء الأزرق ، وهما من الأولياء ذوي الكرامات) قيمة ، ولكن ليس لهما الشهرة التي تعادل شهرة

الأولياء الآخرين كذي النون المصري والجنيد وأبي مدين شعيب ،وله أهمية من ناحية تأديته لوظيفة جلب الانتباه وشده إلى الموضوع ، وهو يحمل ضمنيا تاريخا وتقليدا ما ، وله بعد ذلك أعراف بناء وطريقة قول ، ولهذا عده أبو هلال العسكري من دلائل البيان حيث قال : « قال بعض الكتاب :أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات فإنهن دلائل البيان » .(العسكري د ت ص 451)

وقد بنى النوويالاستهلال في حكاية (جراب القمح) منقولا عن شيوخه ممن رأى أو سمع أو أخبر عنه من قبل عيان في جملة من الصيغ ، باعتبار الحكاية صادرة عن راو (أأخبرنا شيخنا) قاصدة مرويا له (النووي)، وبين كل من المرسل والمستقبل سياق مشترك ، تقع المقصدية على مسافة منه ، والمسافة تشغل آليات تحويلية من السياق إلى الحكاية فيما يخص المرسِل إبداعا ، ومن الحكاية إلى النص عبر السياق فيما يخص المتلقي تأويلا ، فالسرد في حاجة إلى الإعلان عن نفسه بصيغة من الصيغ التي تكون بالنسبة للحكاية كالإطار بالنسبة للوحة ، فالطقس البلاغي ضروري في الافتتاحية لموضعة النص ، ولتوضيح هوية الراوية ، لأنها معيار التلقي(كيليطو 1988 ص 33)

وتتجلى قيمة الاستهلال ومكانته في حكاية الكرامة التي تعكس حدثا خارقا للعادة، مشتملا على عنصر المفاجأة التي تنتهي بصدمة للمتلقي، وهو ذاته الراوي لنا عنها (النووي)، ويظهر السارد أنه يعرف كل شيء ظاهر وباطن الشخصيات وقد حل بداخلها، ويقدم الكثير من المعلومات عن حوارتها التي تدور بينها أو الحركات التي تأتيها ، والعلاقات الموجودة بينها (فلما أضجره – قلبه مرعوب من أهله – قلبه خائف ..) فيكشف بهذه الطريقة أفكارها ومشاعرهاوتكون الرؤية المتحكمة حينئذ هي الرؤية من خلف ، حيث يمتلك الراوي زمام القص فيه بتجرد موضوعي ، إذ ليس الراوي شخصية من شخصيات القصة ، ولكنه يعرف الإطار الخارجي والهواجس الداخلية ، ويحاول بثها إلى المروي له ، بأن تستهل الحكايةبحوار يتبين من ورائه توازن أبي مسلم ورضاه رغم الفاقة وضعف الحال، لكنه بعد دفعه الدرهم للسائل بعد أن أضجره، غُلِّقت في وجهه كل الأبواب،ولم تبق أي بارقة أمل يمكن أن تتولد في أفق توقع المتلقي في حدوث العكس فيفقد توازنه فيملأ جرابه نحاتة وترابا ، وإذا به في نهاية الحكاية يقلب أفق هذا التوقع ، ويعكس حالة ضدية تماما ، تشخص في صورة الكرامة – تحول النحاتة والتراب إلى دقيق منخول ناعم – التي يهبها الله تعالى لبعض أوليائه .

ويشكل السند عنصرا أساسيا في كثير من الكرامات الصوفية ، فلا يمكن دراسة المتن دون التطرق للسند والسؤال عن ماهيته قبل الولوج إلى عالم الحكاية الصوفية ، فقد انتقل السند من فضاء الأحاديث النبوية إلى فضاء قص الأخبار والحكايات ، وشكل السند عنصرا هاما فيها باعتباره دليلا على صدق القول وانتسابه للواقع .فالسند إذن يوهمنا بأن الحكاية الصوفية لها صلة بالواقع بل يحاولإقناعنا بواقعية الحدث فيها، وهي الغاية الأولى التي يسعى إليها السارد ،تخييبا لأفق الانتظار وتغييرالاعتقاد المروي له .(يقطين، المرجع السابق ص 78)

وتشيع في حكايات الكرامة الصوفية(صيغة الإسناد) التي تمنح النص المروي والراوي مزيتين : قيمة الحدث المروي : تكتسب الحكاية مصداقيتها حين تعرف الجهة المنقولة عنها وتذكر بالاسم ، وذلك دليل على (أمانة) السارد الذي نقل القصة عن الراوي ، وهؤلاء الشيوخ الذين أخذ عنهم هم أهل ثقة وأصحاب فضل واستقامة،وحينئذ تقترب

بذلك من نمط الأخبار والمرويات والأحاديث ؛ثم إن السارد حين يصرح بمصادره إنما يعلن عن (براءة) غير متحققة عن مضمون الحكاية أو سمات أبطالها أو أسلوب السرد. مثل فضاءاتها الحقيقية وشخوصها التاريخية ، فكلهم من رجالات التصوف ، وجدوا تاريخيا ، وثبت وجودهم ، وليست ورقية يحتمها السياق الإبداعي واللحظة الجمالية .(ستار 2003 ص89)

4 . 2 موقعالحكاية من العملية الإبداعية :

يمكنالقول بأن الإمام النووي في كتابه (بستان العارفين) في حكاية (جراب القمح)بأنه منتج لكلام أومبدع لما يقدمه من أخبار وأحاديث تارة ، ومصنف وجاامع للموضوعات تارة أخرى ، وفي هذه الحالة فلا يعد منتجا ولا مبدعا ، ويتمثل دوره في التصنيف وإعادة الترتيب وفق منهج خاص ، إذ يعمل على تأطير تلك ال وتنظيمها واختيار تعليقاته عليها(ما أنفس هذه الحكاية وأكثر فوائدها)، وقد تتأرجح العملية في بعض الأحيان بين التأليف والتصنيف .(جبار 2004 ص268)

ويستثمر الإمام النووي مرجعيات المتلقي ، بوصفها مكتسبات قبلية قادرة على توليد شفرات النص الذي هو بمثابة سياق مشترك بينه وبين المتلقي ، وهذه المرجعيات تتجسد في العناصر الثقافية والدينية والاجتماعية والأخلاقية التي لها سمة تداولية في مجتمع ما . نقففي هذه الحكاية عند الخبر(أخبرنا شيخنا أبو البقاء الحافظ) باعتباره خطابا تواصليا بين المرسل والمتلقي ، فالمتلقي قد يكون من العامة يفضل أصنافا معينة من الأخبار ، سواء على مستوى موضوعاتها أو شخصياتها ، وهذا ما يجعل القاص ينزل عند رغبات هذا المتلقي لإرضائه وجذبه . وقد يكون المتلقي من الخاصة وحينئذ يشترط هو الآخر شروطا معينة لما سيتلقاه من موضوعات متعلقة بشخصيات معينة تستهويه .(جبار، المرجع السابق ص 276)

ويتميز أسلوب النص الكرامي في حكاية (جراب القمح) بطابع الإيجاز ، فالسارد للحكاية ليس مجبرا على رواية الأحداث حسب الترتيب الذي جاءت عليه في الواقع ، وليس مدعوا إلى سرد كل ما يعرف ، فلا يجري السرد إلا في ضوء الاختيارات التي يضبطها الكاتب نفسه، فيلجأ إلى الإجمال وهو ضرب من التلخيص، والحذف وهو الإسقاط الكلي لبعض الأحداث والشخصيات والأماكن ، وبالرغم من ذلك فإن هذا الإيجاز كان قابلا لاستيعاب متغيرات متعددة ، تساهم في تنويعه وحيويته ، وكان أهمها الجمع بين الذاتي والموضوعي وبين الإيحائي والحسي .(يقطين، المرجع السابق ص 293)

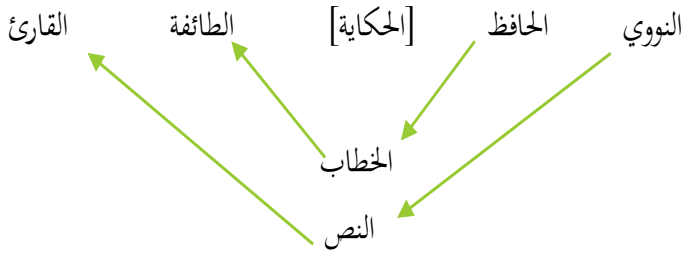

خطاطة تبين موقع الحكاية من النص والخطاب

5 . العناصر البانية لحكاية الكرامة الصوفية :

لا حكاية بلا موضوع تدور حوله الأحداث في تتابع، وتجري في أزمنة متعاقبة ، بشكل مترابط ترابطا سببا ، فلا يقع الواحد منها إلا بسبب من الآخر وهكذا دواليك ، وهو ما يسمى المادة الحكائية، ولا حكاية دون حبكة، تندمج فيها العناصر المكونة للحكاية في سيرورة ذات أطوار منسجمة، من وضع البداية إلى سياق التحول إلى وضع الختام،وهذا ما يمكن أن نطلق عليه مفهوم البناء الحكائيي، فهما مركبان أساسيان، يعرفهما أحد النقاد بقوله: « المادة الحكائية هي مجموع الأحداث المرتبطة بعضها ببعض، وهي التي تساق إلينا من خلال الأثر القصصي. أما البناء القصصي للأحداث المذكورة في النص ، فقائم بالسرد وفيه ، ولا يتصور خارج نطاق صياغته » .(القاضي، معجم السرديات 2010 ص 363)

1 . 5 الحدثالكرامي وأشكاله :

إن سد الحاجة هي التي دعت الفاعل (أبا مسلم الخولاني) إلى البحث عن الشيء المرغوب فيه وهو (الطعام) والمستفيد منه هو وزوجته، لكن هناك من يسعى إلى تعطيله ومنعه من تحقيق مهمته (السائل الملحاح)، وهذهالوضعية تعد مناسبة لظهور المدد أو القدرة الخارقة والمساعدة؛التي تمد الولي بما يحتاجه، بعدما يئست من الحصول عليه،وتم اختيار الطعام لكونه شكلا من الأشكال التي تحدد هوية الجماعة التي ينتسب إليها هذه الولي(اجتماعية ، مؤسسية ، ثقافية) وبيان مدى مطابقتها « وقد كشفت دراسة هذا العنصر عن وجود تفاوت طبقي جعل العقل الجمعي يسعى للحلم بيوتوبيا الشبع والامتلاء ، بالإضافة إلى ارتباط المجتمع العربي في هذه الفترة بروح الخرافة ، والتي ظلت مستشرية ومتعلقة ببقايا الأساطير التي كانت سائدة ».(الشاهد 2012 ص355)

و يبقى الجوع هو أحد أسلحة الهلاك التي تهدد الإنسان بالفناء منذ أن خلق ، ولذلك كان سعي الإنسان محموما دائما لامتلاك غذائه ، وبالتالي يحفظبقاءه وحريته ، ولذلك ظهر الخرقالكراميوالسحري ، والذي بفضله حلت مشكلة الجوع للجميع « لأن الطعام يرتبط بالبيئة والاقتصاد وبالدين والمعتقدات الشعبية ، وربما بكافة مظاهر الحياة الإنسانية المادية والفكرية ، وعلى هذا الأساس يشكل الطعام مركبا حضاريا في الفكر الأنثروبيولوجي ». (الشاهد، المرجع نفسه ص 363)

فما حصل لأبي مسلم أو لعطاء الأزرق يعد تكرارا للنموذج النبوي ، يندهش المتلقي من الحدث في لحظة ثم يخف اندهاشه وتزول حيرته بعد ذلك ، عندما يُرجع ذلك إلى معجزات وكرامات حصلت من قبل وتكررت بتمظهرات جديدة ، مما يدل على تدخل قوة تتعدى الفهم العادي للعالم وللقوانين المتحكمة في الأشياء .

2 . 5 الشخصيات : عوالم وصراعات .

الصراع يقع الذي يقع عادة بين الشخصيات يكون من أجل امتلاك موضوع قيمي ، بحكم العلاقة التي تتسبب في وقوع الصراع بينهامن أجل إعادة التوازن عندما تحقق غايتها ، وتتجلى هذه العلاقة بصفة واضحة في حيرة أبي مسلم بين التصدق بالدرهم الوحيد وبين شراء الدقيق ، ولكنه في الأخير يرجح الخيار الأول ، وهو واثق بأن الله رازقه لا محالة ولا يخيبه . فجاء الفرج من حيث لم يحتسب ، ومن البديهي أن هذا الصراع لا يتم إيصاله إلى القارئ إلا عبر سارد ، يمثل قناع المؤلف الذي يختفي وراءه ، ليسردها ، باعتباره الفاعل في كل عملية البناء ، فالسارد الراوي « هو ذلك الشخص الذي يسرد النص بحيث يشكل الأنا الثانية للكاتب التي خلقها ، وفوض إليها مهمة سرد الحكاية ، سواء كانت حقيقية أو متخيلة » .((برنس 2003 ص13)

فالشخصيات في حكاية الكرامة الصوفية عنصر مؤطر وأساس ، فالشخصيات المرجعية كأبي مسلم الخولاني أفردت له أبواب أو فصول في كتب خاصة تسمى بالمناقب تمييزا لها من التراجم العامة ، وأما الشخصيات العجائبية فأبو مسلم أيضا فيها على الرغم من مرجعيته ووجوده التاريخي إلا أن ما وصل إليه من عناية ربانية ، تمكنه من إتيان العجائب ، ويكون هذا التحول عن طريق الكرامة مبشرا بصدق الولي على تقواه ومقامه الزكي « فيسعى من خلاله إلى كسب ثقة الناس، ناهيك عن أن النص حافل بمؤشرات دالة على حقيقة الشخصيات ، وهم في الغالب رواة الأخبار والكرامات ، لهم وجود فعلي في الزمان والمكان ، غير أن اقترانها بالتحول هو ما يضعنا أمام الخارق» .(ستار، المرجع السابق ص 18)

فالولي الورع غالبا ما يحرم على نفسه رواية ما حصل له من كرامات؛ حفظا للسر وصونا لنفسه من العُجب والافتتان ، ويطلب من أتباعه ألا يفشوا السر، وأن يصونوه إلى أن يموت، وإذا كان الشرط الأساسي للكرامة، ألا يخبر بها الولي ، وإنما أشخاص آخرون، يشاهدونها ثم يروونها بإحالة على عدد هائل من الرواة الثقات، وبنقل أرباب المساند المحققين ، إذن فمن أخبر بحصول هذه الكرامة لأبي مسلم الخولاني، أهي زوجته ،هل كان ذلك بعد وفاته أو قبلها؟ ولماذا أذاعت هذا السر ؟

3 . 5 الزمن والفضاء : مرجعيات وتحولات .

يبدو المتصوفة من خلال مجاهداتهم وما أنتجوه من نصوص أن لهم وعيا خاصا بالزمن ،ويندرج ذلك ضمن رؤيتهم الخاصة إلى العالم كله من خلال ذات الصوفي وعلاقتها بالله ، فانعزاله وخلواته لفترات طويلة ، كما هو الشأن في حكاية جراب القمح (ذهب من الليل الهوي) قد يصير بعدها فاقدا للإحساس بالزمن ، وبالتالي خصوصية التجربة الصوفية مع الزمن ، فيمكن للولي أن ينفلت من قبضة الزمن وتأثيراته ، كما تحصل في الكرامة الصوفية ، فنص الكرامة (جراب القمح) التي تحققت لأبي مسلم الخولاني ،لا ينتهي عند وفاة الشيخ (الولي) بل يبتدئ

من جديد ، محققا الخلود الأبدي والتواصل الروائي بين رجال التصوف ومنهم الإمام النووي « يبقى للضريح قدسيته التي لا تزول رغم انقضاء الزمن ، فقبره معلوم يزار ومشهور بالبركة والانتفاع بها وباستجابة الدعاء ».(بدران 2001 ص153)

أما الفضاء في الخطاب الكراماتي فيظهر بسمات عديدة ، ويعرف على أنه الإطار الذي يضم الشخصيات لتتحرك فيه ، فالفضاء المرجعي هو الفضاء الذي نجد له مرجعية واقعية وتاريخية ، وكل ما نجد له أثرا جغرافيا يمكننا التحقق من مرجعيته (المنزل – السوق) في حكاية جراب القمح، كما نجد فضاءات عجائبية ، فالكرامة تتحقق من خلال الحدث وهو فعل خارق للعادة (قبور تتحول إلى جنان ونشارة تتحول إلى دقيق) تدخل المتلقي في دائرة الحيرة والتردد ، وأيضا فضاء القداسة والبركة التي ترتبط بالأرزاق (الدقيق لصنع الخبز) والأوقات وكيف يفضل بعضها على بعض، ويدخل في البناء الوظيفي للكرامة ويحضر لغرضين : إما للإقناع وربط الحدث بالواقع ، أو بغرض خرق العادة وإضفاء العجائبية التي تصنعها قدرة الولي على تغيير قوانين الطبيعة والتحكم فيها وتحويل الكائنات من حالة إلى حالة أخرى ، فيكون الفضاء في هذه الحالة هو الكرامة التي يسعى الراوي (الشيخ أبو البقاء الحافظ)إلى إثباتها .

4 .5 الذات وموضوع القيمة :

المتأمل في المقصدية من حكاية الكرامة الصوفية يجد أن الأحداث تجري إلى هدف يتقصده الكاتب ويحرص على إدراكه ، كما أنها علاقة أولية تربط ذاتا واعية (الإمام النووي) بموضوع ذي قيمة (الكرامة أو المنقبة)، يتبادل فيها الطرفان (المرسل والمتلقي) علاقة التأثير والتأثر ، وتحديد الغاية من الخبر أو المقصدية هو معرفة أقدار الصوفية بذكر أحوالهم وكراماتهم ومناقبهم، وهي معرفة توجيهية ، تسعى لتنمية ما هو إيجابي في الإنسان ، وتأديبية تعمل على كسر ما هو سلبي .

كما تظهر ثقافة الشيخ/المريد في السند (أخبرنا شيخنا أبو البقاء الحافظ) في مستويات الحياة الإنسانية في الفكر والقيم والسياسة والاجتماع ، وهذه المستويات تعتمد في أصولها على تراث الماضي (النبوة) ، وتعيش على أمل استرجاعه من خلال منظومة فكرية مقدسة ، لا يجرؤ أحد على ملامستها أوالحديث عنها نقد أو مراجعة ، وهذه الثنائية بين الشيخ والمريد هي تعبير رمزي في النسق الصوفي ، يدل على قوة العلاقة والاتباع غير المعقلن في أغلب الأحيان ، وهذه العلاقة تتجاوز النظرة التبسيطية لها ،بل هي ثقافة تمتد بأبعادها إلى أعمق من ذلك الجانب الاختزالي في التفكير ، لتصل في مداها إلى موضوع التقليد أو التبعية بشكل عام ، وهذا ما يمكن أن يصطلح عليه بالفكر الآبائي في التعبير القرآني ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ الزخرف/22

6 ـالتأويل :استنفار لمخزون دلالي .

ماذا نعني بالتأويل ؟ هل هو آلية من آليات القراءة ولا تخرج عما سطره المفكرون العرب أو نعني به تلك الفلسفة التي صاحبت الهرمينوطيقا في الفكر الحديث ؟ بالتأكيد أننا نتعامل مع المفاهيم الشائعة في التعامل مع النص ، أليس التأويل بداهة من بداهات العقل البشري ، المؤمن بثنائية الظاهر والباطن ، ألسنا نعتقد بأن كل

ظاهرة لها سطح وقاع، وهل نعني بالتأويل الغوص إلى الأعماق ، بتجاوز العوارض بحثا عن الجوهر ؟فالمؤول في هذه السياقات مجتمعةداخل/خارج النص (حكاية الكرامة الصوفية) لا يبحث عن معنى جاهز فيه ، بل يسعى وراء ما يمكن أن يقود إلى استنفار لمخزون دلالي ، لا يشكل الظاهر في الألفاظ والوقائع سوى طبقة من طبقاته ،ويتعلق الأمر بمحاولة لتقليص الفجوة الفاصلة بين الحقيقة والمجاز .

ويعد التأويل– خصوصا التأويل الصوفي– أداة لتحرير المعنى من قيود السياقات المألوفة ، لذلك انزاح الصوفي عن المعجم المتداول ، وصنع معجما خاصا به ، فما يعيشه الصوفي في اللغة وفي الطقوس وفي تفاصيل حياته ، لا يمكن أن يكون سوى سبيل نحو الانغماس في (حالات الاستيهام) تستوعب كل حالاته ، رغبة في الوصول إلى ما يشكل (جوهر المعنى) ،أي قلب الرؤيا من الخارج إلى الداخل ومن الظاهر إلى الباطن ، إن العبادة الظاهرية ستبقى طقسا لا جوهر له ما لم تتبصر الباطن . وهذا ما يفسر اعتراف ابن عربي بأن مقاصد الحقيقة في شعره مقاصد خفية مخالفة للمعاني المباشرة الظاهرة وفي ذلك يقول :

كـــل ما أذكره مما جـــــرى ذكـــــره أو مثله أن تفهما
منه أســـرار وأنـــوار جلَّت أو علت جاء بها رب السما
فاصرف الخاطر عن ظاهرها واطلب البـــــاطن حتى تفهما(عربي 1981 ص10 11)

1 . 6 الحكاية الكرامية وإشكالية التأويل :

مبدئيا يمكن أن نعد شطح الكرامة من قبيل (شطح الأفعال) مقابل (شطح الأقوال) الذي يسعى متلقوه إلى تأويله التأويل الحسن ، وإلا عد أهله كفارا أو زنادقة ، وهو الشطح المعروف الذي تصدى له خصوم التصوف والمدافعون عنه على حد سواء . فإذا كان شطح الأقوال هو تجاوز الحد والقصد في العبارة ، والخروج عن حدود المواضعة والاتفاق ، أو هو نوع من الانتهاك لمبادئ الدين وقيمه ، فإننا نقصد بشطح الأفعال حين تؤول الكرامة إلى نقيض مقصودها .. وبيان ذلك : إن الكرامة تبدو في ظاهرها مقبولة مستساغة ، ولكنها تؤول بالتأويل إلى فعل مستشنع منكر ، والسبب في ذلك أن رواة هذه الكرامات وكاتبيها ، قد أعماهم التعصب والتقليد وتقديس الشيوخ أن يلتفتوا إلى ما تحبل به هذه الكرامات من معان متضادة مع روح الشريعة وقيم الأخلاق .(المنصوري، المرجع السابق ص 280 281)

إن حكاية الكرامة الصوفية الواردة في كتاب (بستان العارفين) هي نص تم تثبيته بواسطة الكتابة ، وهي ذات تحولين : من التحقق حدثيا إلى التحقق قصصيا ، ومن السياق الضيق إلى السياق العام ، وبالتالي فإن كتابة الكرامة لاحقة على وقوعها ، بغية تثبيتها عبر رسم تمفصلاتها حدثيا ودلاليا ورمزيا ضمانا لديمومتها .ويمر متلقي حكاية الكرامة الصوفية بلحظتين متزامنتين : لحظة التقبل الذوقي ، وفيها يشعر القارئ بجمالية حكاية الكرامة منذ الوهلة الأولى ، ولحظة التأويل ، وفيا يتم استجلاء المعنى القابع في نص الحكاية ، واكتشاف الفروق بين الحدث المتفجر في الكرامة ، ومدى مباينته لغيره من الأحداث درجة وتخييلا . فأبو مسلم الخولاني في هذه الحكاية الصوفية يؤكد على ضرورة التعلق بالله ، ويدعو إلى عدم التعلق بالأسباب (الدرهم والدرهمين) وهي أسباب قوية يعول

عليها في طلب الحاجة ، وهو ما يتخذه السائر على طريق الصوفية ، ويرى أن وضع (النشارة والتراب) وهي أسباب ضعيفة ، أقرب إلى السلامة من الوضع الأول (الدراهم) لأنه لم يعتمد الأسباب كلية ، فكأن الخولاني اعتمد على المسبب الحق تعالى لا عليها ، وإن تمسك بها ظاهرا ، وهذا لا يعني أن الإنسان يترك الأسباب ، بل المراد أن يترك اعتبارها من قلبه ، لأن الاعتداد بها وذكرها يعد منة على الله عز وجل .

وتتفرع إشكالات جمة في قراءة العجائبية فيحكايات الكرامة الصوفية وتأويلها على اختلافها ، وتتمحور حول قضيتين مركزيتين : تتعلق الأولى بطبيعة المعنى وطبيعة نص الكرامة ، وتتعلق الثانية بمسألة فهمه وإدراكه وتأويله . وهنا نتبين ضربين من الكرامات :ضرب تصاغ فيه الكرامة نصا لتجربة ذاتية للولي ويتضمن تأويلا له ، وحينئذ فالكرامة نص يتقاطع فيه الخطاب مع الأنا والآخر . وضرب آخر تتم فيه صياغة نص الكرامة ، عبر خطاطات/بياضات تنهض الذات المؤولة ببنائها وتركيبها من خلال المعطيات النصية (القرائن) . «ونصوص الكرامة لا تؤول على سبيل المجاز والرمز ، وإنما ينظر إليها على أساس أنها حقيقة رغم وقوعها على الحافة بين ما هو تاريخي وما هو أدبي وما هو مقدس » .(خليل، المرجع السابق ص 135)

2 . 6 تأويل العجائبي في الحكاية الكرامية:

لعل من أول عناصر العجائبي ضرورة التعامل مع عالم الشخصيات داخل النص باعتباره عالم أحياء حقيقي ، وهذا هو الفرق بين عالم الكرامة الصوفية وبين الأدب الخيالي الذي لا يتسم بحقيقة واقعية، تتصل بالواقع خارج النص .وأول ما يلفت انتباهنا في حكاية الكرامة الصوفية الموسومة بـ (جراب القمح) هذا النص الطليق الراهن هو استخدامه للعبة التوثيق التاريخية التي ارتبطت في تراثه بالمقدس وتأسيسه وتوثيقه وترسيخه ، وهي آلية (السند) أخبرنا شيخنا قال حدثنا، وابتكرت هذه الطريقة من أجل توثيق الحديث النبوي الشريف بداية، ثم انتقلت إلى التاريخي« فإنما حدث ذلك من أجل إضفاء الموثوقية والرصانة والحقيقة على المسرود التاريخي ، وها هو نص الخيال الطليق ينقلها إلى مجال التخييلي المبدع ، بل إنه ليبلغ في استغلالها الدرجة القصوى » .(ديب 2007 ص 8)

إن اقتران الجماد بالقدسي والتعليق على قصص عجائبية من خلال نصوص قرآنية وحديثية من شأنه أن يسندها ويجعلها قابلة للتصديق ، ذلك أن قدرة الله التي أنطقت جميع المخلوقات ، لكفيلة بأن تنطق الأشجار والنبات ، فهذا النص الكراماتي ينطوي على غايات تعليمية تربوية إضافة إلى عجائبية ، إنها تمتلك القدرة على تحويل النشارة والتراب إلى دقيق من النوع الرفيع ، بناء على خواص كيماوية منحها الله إياه ، إن اقتران الجماد بالقدسي في نصوص الكرامة الصوفية ، يسنده ويدنيه من الحقيقة الواقعية ، والمتأمل في هذا النص العجيب لا يمكنه إلا أن يقف مشدوها أمام عظمة الخيال فيه .

تتميز نصوص الكرامات باعتقادها الراسخ في إمكانية خرق الله العادة لعباده الصالحين ، بسبب نقاء سريرتهم ، وهو المبدأ الديني المعرف في نسق الثقافة الإسلامية ، باعتباره حقيقة مطلقة ، لا يجوز الطعن فيها ، والغاية من إيراد هذه الحكاية هو التأكيد على معنى الأثر النفسي الذي يمكن أن يخلفه غياب القدوة في نفوس أتباعه ، في فضاء مقدس لا يجوز تدنيسه ، مما سوغ إمكانية حدوثها قياسا على وقائع أعلى منها مقاما هي المعجزات . يلاحظ

البعض أن المقدس ليس خاصية من خصائص الكائنات ، وإنما هو قيمة مضافة ، أي خاصية ترد من خارج ، ويتم إسقاطها على الكائن الطبيعي . قد تتعلق تلك الإضافة بأدوات (وسائل العبادة) أو بأشخاص (ملك ، كاهن ، نبي) أو بأزمنة (أعياد ومواسم) أو بأمكنة (أماكن الحج والعبادة) وبفضل تلك القيمة المضافة ، فإن المقدس « يبعث إحساسا بالرغبة والجلال ، ويقدم نفسه بوصفه (ممنوعا) أضحى الاقتراب منه خطيرا ، وكل من تغافل عن ذلك يعرض نفسه لعقوبة آلية آنية ، مثلما تتعرض اليد للاحتراق حتما بفعل ملاقاة النار : يكاد أن يكون المقدس بهذا القدر أو ذاك ، بمثابة موت محقق لكل من يقترب منه » .(caillois 1950 p25)

حافظ النص الصوفي على سريتهولم يتخذ صورته العجائبية والفاتنة بادئ الأمر إلا بعد أن مر بمراحل ، حين بلغ مرحلة (الشطح) وهي مرحلة لم تسلم فيها الطائفة الصوفية ، لأن خطابهاالشاطح عاش متهما دائما ، لكونه خطابا صداميا بما يحمله من معان مستشنعة في الظاهر، لا يبدو لناظرها انطواؤها على مخفيات معنوية هي المرادة. لطالما ارتبط السر بوجود حقيقة عظمى لا يجدر لبوح بها ، لما قد يترتب عنها من مهالك أو مظالم ، ولا سيما إذا وارتبط السر بالكرامات التي لا يجوز كشفها للعامة تفاديا لسوء فهم أو التباس، قد يؤدي إلى مفاسد وفتن وقطع أعناق ، ولذلك وجب الكتمان لا خوفا على الولي بل وعلى الولاية أيضا .(مزوز 2018 ص90)

6. 3 الحكي أفق جمالي في نص الكرامة :

فالعجائبي من منظور شعرية السرد قد يتحقق من استعمال الحكي في حد ذاته باعتباره عنصرا جماليا ، ولكن العناصر العجائبية في حكاية الكرامة الصوفية ليست أقل جمالية حين تحقق الإدهاش والحيرة ، فمن عباءة الحكي عموما وقصص الأنبياء خصوص ، خرجت قصة الكرامة فنا أدبيا صوفيا مستقلا ، متخذة لنفسها مكانة مرموقة ف التجربة الصوفية عموما وفي حياة الصوفي خصوصا ، الغرابة من مقومات البلاغة العربية ، وهي مطلوبة ، لأن الشيء كلما كان أعرب كان أبعد في الوهم ، وكلما كان أبعد في الوهم كان أظرف ، وكلما كان أظرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبلغ .. الغرابة تشعرنا بالمفارقة وتباغتنا بما لا عهد لنا به من قبل ،وتفجأنا بما لم نكن نعرفه ، وتدهشنا بأن ترينا القديم جديدا ، من هنا هذا الشعور بالاستعجاب أو الاستظراف الذي يرافقها .(حرب 2007 ص 33)

لقد جمع الخيال بينالثنائيات المتناقضة ومنه انسابتحكايات الكرامة الصوفية ، ساعيا إلى شد السامعين والقراء ، موهما إياهم بأن ما جرى لم يتجاوز المحتمل والممكن ، وكثيرا ما يقع المتلقي في دائرة سحر الكرامة ، غير عابئ بالحقيقة أمام ذلك الوصف الخيالي المثير لعالم عجيب ، تتوفر فيه المغامرة ، وتسود فيه القدرة والمباغتة ، ويلتبس فيه الفرد بين البشري والإلهي ، وبين الواقع والخيالي وبين الصريح والمكشوف والغامض والمستتر ، والخيال في جوهره هو إرادة السمو .(خوالدية 2015 ص 51 52)

والملاحظ أن المدة التي يستغرقها الفعل (الحدث) لا تتناسب مع القول فيها، إذ يختصر الراوي الزمن بكلمات معدودة، يحجب فيها التفاصيل والحيثيات لوجود دلالة يمكن الوقوف عليها استنتاجا من مجمل أهداف الراوي الذي يحذف فضول الكلام وما لا يحتاج إليه السامع، وما يقع في دائرة البديهي الذي لا يحتاج معه إلى ذكر، فالقصة

الصوفية قصة حدث مركز ومكثف، وليست قصة تفاصيل ماتعة . أما في المجمل فإن الراوي لا يحذف ولا يلغي ،وإنما يجمل ولا يفصل ، ولا يقول كيف حدث ، في جملة وسطر واحد ما مدته سنوات من عمر الإنسان . فجعل الراوي صيغة الحوار المشهدي ، والتقنيات المستخدمة في هذه الحكاية التي تنوعت، بين الحوار والوصف ، كما استخدم الراوي تقنية الاختزال والقفز بغية التركيز على الحدث الرئيس ، فقد خلق المتصوفة نوعا أدبيا وأسلوبا جديدا في التراث الأدبي ، يحتاج إلى دراسة مطولة ، لأنهم عالجوا مأساة الإنسان ووجوده على الأرض عن طريق (الكرامة) في لغة رمزية تهم بني الإنسان جميعا .(زيعور، المرجع السابق ص 90 91)

كما أن بنية الفعل الحكائي عند المتصوفة هي بنية بسيطة التركيب في الغالب ، ذات حدث واحد ، تتمحور حوله حركة الشخصية المحورية التي تتمثل في القصص الذاتي هي الذات المتماهية بمرويها الذي يقوم بمهمة نقل الفعل الحكائي إلى شخصيات ثانوية ، ومن خلال استقراء النماذج الصوفية المتاحة في الحكاية يمكن معرفة نمط الشخصية: الشخصية المرجعية وهي أكثر تفشيا في القصص الذاتي ، تقف على الأسماء والماهية التاريخية لشخصيات ذات وجود حقيقي في مسيرة التاريخ ، ومسرودة سيرتها وأحوالها وأعمالها فيمضانالتاريخ الخاص بالأمة التي تنتمي إليها ، على أن القصص لا تتناول أحوالهم وتاريخ حيواتهم ، وإنما تتمحور الحكاية حول (حدث) مهم ، روي عن الشخصية الحكائية المرجعية ، وتداولته الألسن بوصفها إحدى وسائل التربية الصوفية في الاقتداء بالمشايخ وأقطاب التصوف ، ولذلك كانت العناية بالغة في تتبع إسناد الحكاية .أماالشخصيةالرؤياوية/ العجائبية وهو نمط غير منفصل عن الشخصية المرجعية ، وإنما هو نوع من تحولاتها الغرائبية ، حين يأتي بأفعال تدهش أو تذهل عامة الناس ، بل أهل الطريقة أيضا ، ودائما يكون هذا التحول دليلا على صدق دعوى الصوفي وصحة مذهبه وطريقته .(ستار، المرجع السابق ص 181)

الخاتمة

ومن هنا شكلت الكرامة المعادل الموضوعي للمعجزة ، واحتلت هذا الموقع المتقدم في الذهنية العربية الإسلامية ، وكان من الطبيعي أن يتولد عنها ما يسمى بشهوة الكرامة والتي تعني المغالاة في طلب الكرامة وجمع أخبارها وتلفيق أطرافها وتقديس أصحابها ، والأهم من ذلك حمل الكرامة محمل البداهة والتسليم والخضوع والإذعان لسطوتها ، بحيث تحمل مصداقيتها في ذاتها وليس في الخارج – لغة المناطقة – باعتبارها من آيات الله الباهرة ، وبراهينه اللائحة الواضحة فيخشى على المكذب من سوء العاقبة ، والنتيجة أنه تشكلت بعد عقود من الزمن رؤية للعالم والإنسانوللحياة ، يمكن تسميتها بالرؤية الكرامية للوجود، وهذه الرؤية من طبيعتها أنها تبحث عن الآيات والإشارات باستمرار لتبرير تحققها وقبولها، والتأويل جاهز في كل الأحوال .

Bibliographie

caillois, R. *L'homme et le sacré*. Paris: Gallimard, 1950 p25 .

اسبينوزا ,باروخ .*رسالة في اللاهوت و السياسة* .بيروت لبنان :دار التنوير للطباعة و النشر و التوزيع 2020 ,ص 229 230 .

الحق ,منصف عبد .*أبعاد التجربة الصوفية ، الحب الإنصات الحكاية* .المغرب :إفريقيا الشرق 2007 ,ص. 269

الشاهد ,نبيل حميدي .*العجائبي في السرد العربي القديم* .عمان الأردن :الوراق للنشر و التوزيع 2012 ,ص 355 .

.—*المرجع نفسه* .ص .363

العسكري ,أبو هلال .*كتاب الصناعتين ، الكتابة و الشعر* .مصر :دار الفكر العربي ,د ت ص .451

الغزالي ,أبو حامد .*تهافت الفلاسفة* .بيروت لبنان :دار المشرق 1982 ,ص . 195

القاضي ,محمد .*الخبر في الأدب العربي ،،دراسة في السردية العربية* .بيروت لبنان :دار الغرب الإسلامي 1998 , ص . 622

.—*معجم السرديات* .تونس :دار محمد علي للنشر 2010 ,ص .363

القشيري ,عبد الكريم .*الرسالة القشرية في علم التصوف* .مصر :مصطفى البابي الحلبي وأخويه ,د ت ص 174 175 .

.—*المصدر السابق* .مصر :مصطفى البابي الحلبي وأخويه ,د ت ص.168

المنصوري ,عبد السلام .*المرجع السابق* .ص .281 280

.—*بنية الخطاب المنقبي ، طلاق العقل وأو هام التاريخ* .الرباط المغرب :المركز الثقافي للكتاب 2017 ,ص 234 236.

النووي ,الإمام ابن شرف .*بستان العارفين* .بيروت :دار البشائر الإسلامية 2006 ,ص .361 360

بدران ,ابو الفضل .*أدبيات الكرامة الصوفية، دراسة في الشكل و المضمون* .الإمارات :مركز زايد للتراث و التاريخ , 2001ص.153

برنس ,جيرالد .*معجم السرديات* .القاهرة مصر :ميريت للنشر 2003 ,ص.13

جبار ,سعيد .*الخبر في السرد العربي، الثوابت و المتغيرات* .الدار البيضاء المغرب :المدارس للنشر و التوزيع 2004 , ص. 268

.—*المرجع السابق* .ص .276

حرب ,علي .*التأويل و الحقيقة ، قراءات تأويلية في الثقافة العربية* .بيروت :دار التنوير للطباعة و النشر و التوزيع , 2007ص . 33

خليل ,لؤي علي .*المرجع السابق* .ص .135

.—*عجائبية النثر الحكائي، أدب المعراج و المناقب* .دمشق سوريا :التكوين للتأليف و الترجمة و النشر 2007 , ص . 9 7

خوالدية ,أسماء .*الفكه في قصص كرامات الصوفية بين التقديس و التحميق* .الجزائر :منشورات الاختلاف , 2015ص .52 51

ديب ,كمال أبو .*الأدب العجائبي و العالم الغرائبي في كتاب العظمة و فن السرد العربي* .بيروت :دار الساقي للنشر 2007 ,ص . 8

رشد ,أبو الوليد محمد بن .*الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة* .بيروت لبنان :مركز دراسات الوحدة العربية 1998 ,ص . 167 166

زيعور ,علي .*الكرامة الصوفية والأسطورة و الحلم* .بيروت :در الأندلس 1984 ,ص . 152

.—*المرجع السابق* .ص . 91 90

ستار ,ناهضة .*المرجع السابق* .ص .18

.—*المرجع السابق* .ص .181

.—*بنية السرد في القصص الصوفي، المكونات و الوظائف والتقنيات* .دمشق سوريا :منشورات اتحاد الكتاب العرب 2003 ,ص.89

شغموم ,الميلودي .*المتخيل و القدسي في التصوف الإسلامي، الحكاية و البركة* .مكناس المغرب :منشورات المجلس البلدي 1991 ,ص. 20 14

عربي ,محيي الدين بن .*ترجمان الشواق* .بيروت :دار بيروت للطباعة و النشر 1981 ,ص. 11 10

كيليطو ,عبد الفتاح .*الحكاية والتاويل ،دراسة في السرد العربي* .الدار البيضاء المغرب :دار توبقال 1988 ,ص 33.

مزوز ,محمد .*فلسفة الدين بين التجربة الباطنية و التأمل النظري* .الرباط المغرب :لمركز الثقافي للكتاب 2018 , ص.90

يقطين ,سعيد .*الكلام والخبر ، مقدمة للسرد العربي* .الدار البيضاء المغرب :المركز الثقافي العربي 1997 ,ص. 58

.—*المرجع السابق* .ص . 78

.—*المرجع السابق* .ص .293

.—*المرجع السابق* .ص.79 78